الفصل الثامن عشر

أديان العرب في الجاهلية

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام واختلفت اختلافاً متبايناً، وتأثرت عادة بما جاورها من البلاد، فقد ذكر اليعقوبي: «إن أديان العرب كانت مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات»[1]. كما أخذ العرب عن الأمم التي اتصلوا بها كثيراً من آلهتها. وأثبتت الدلالات في بلاد العرب وجود ديانات سماوية كالمسيحية واليهودية، وغير سماوية كالمجوسية والصابئة والوثنية التي كانت العامة والغالبة في شبه جزيرة العرب.

أديان الوحي عند العرب قبل الإسلام

1- الحنيفية:

إن الحنيفية ليست ديناً بالمعنى الذي هو عليه الإسلام والمسيحية واليهودية، صحيح أنها تقول بوحدانية الله، إلا أنها ليست ديانة كتاب أو حي موحى. هي اعتقاد بوجود إله واحد أحد، دون أن يكون هناك وصايا أو تعاليم أو طقوس، ما عدا الحج إلى الكعبة. هذه الحركة الحنيفية ظهرت عند العرب قبل الإسلام، ولاسيما عند أولئك الذين استنكفوا عن عبادة الأوثان، ولم يعتنقوا المسيحية أو اليهودية، وسمي أتباعها بالأحناف أو الحنفاء، وكلها جمع «لحنيف» صفة إبراهيم

---

[1] تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 211.

عليه السلام الواردة في القرآن الكريم في الآيات التالية: «وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[1]. و «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[2].

يتبين من هذه الآيات أن الحنيفية كانت اعتقاداً سائداً يجسد موقفاً توحيدياً يؤسس لميثاق مقدس خارج الزمان والمكان، موجود في وعي الناس يجذبهم نحو المطلق ونحو اللامتناهي خارج إطار أي تشكل لغوي وثقافي وتراثي. إن الإسلام بما هو دين حنيف تجسيد لشعائر وطقوس، لحظته الأولى محددة زمانياً ومكانياً، مسبوقة بأديان الوحي المتقدمة زمانياً عليها، والكل مؤسس على فضاء قدسي لامتناه يتمثل في الحنيفية، وبحركة إبراهيم عليه السلام حتى قبل بالتضحية بابنه من أجل طاعة الله[3].

ويعتبر الدكتور شوقي ضيف، أن كلمة «حنيف» تعني (المائل عن دين آبائه) كما يدل اشتقاقها اللغوي[4]. والحقيقة إن معظم الذين اعتنقوا الحنيفية مالوا عن عبادة الأوثان والأصنام المحدودة زمانياً ومكانياً إلى دين إبراهيم عليه السلام، الذي كان يعبد رباً لامتناهياً في الزمان والمكان. أما طقوس الحنيفية فهي: الحج، والرجم وكسوة الكعبة.

2- اليهودية:

من الصعب أن نتحقق تاريخياً من بدء وجود اليهود في الجزيرة العربية، فالبعض من الثقاة يظن أن وجودهم باليمن يرجع إلى أيام سليمان، والبعض إلى عهد سقوط القدس على يد نبوخذ نصر. ومن الجائز أن يكون نزوحهم إلى الجنوب قد تزايد مباشرة بعد تخريب الهيكل الثاني بقليل. ويظن «نيكلسون» ***R.A.Nicholson*** أن أقدم المستعمرات اليهودية في الحجاز يرجع إلى زمن سقوط القدس بيد «تيطس» أو «هادريان». وعلى كل فقد كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية في

---

[1] سورة البقرة: الآية 135.

[2] سورة آل عمران: الآية 67.

[3] د. سميح دغيم: أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، دار الفكر اللبناني - بيروت 1995، ص 48-49.

[4] د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دار المعارف - القاهرة، ص 96.

تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب وهي أهمها. وكان يهود يثرب ثلاث قبائل: بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة.

واليهودية هي أولى الديانات الكتابية الموحى بها، أي أن اليهود أهل كتاب «التوراة»، ثم جاء «التلمود» ليكمل أحكام التوراة ويشرحها. فقد قام أحبار اليهود بتسجيل هذه الشروحات وقوامها مجموعة القواعد والأحكام والوصايا والشرائع والشروح والتعاليم والروايات التي تواترت شفاهة. وقد حمل اليهود توراتهم بتعاليمها إلى جانب أساطيرهم وخرافاتهم، كما أنهم أدخلوا على العربية كلمات ومصطلحات دينية جديدة، ولقد كانوا بارعين في الأعمال اليدوية والزراعية والصناعية. ومما يجدر بالإشارة أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لأنها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني - الروماني ولأنها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الثقافة اليونانية. وامتدت ديانتهم - وإن ندر امتدادهم بأنفسهم - إلى ما وراء يثرب، فقد تهود الكثير من العرب. قال اليعقوبي: «فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من خذام»[1].

ويذكر الألوسي في كتابه «بلوغ الأرب» أن اليهودية ظهرت عند بعض بني كنانة وبني الحارث بن كعب وذلك لمجاورتهم لليهود القاطنين في يثرب وخيبر. وقد كان من نتائج انتشار اليهودية في بلاد العرب أن تعرَّف العرب على بعض تعاليم التوراة كالبعث والحساب، كما تأثرت اللغة العربية باللغة العبرية ودخلتها بعض الكلمات والتعابير الجديدة[2].

3- النصرانية:

النصرانية هي ثاني الديانات الكتابية الموحى بها، وإن كان النصارى لا يعتبرون أنفسهم أهل كتاب من حيث أن الوحي مستمر في ألوهية المسيح، وأن الأناجيل التي هي من وضع الحواريين الذين سجلوا كلمات المسيح وصاغوها

---

[1] ابن واضح اليعقوبي، تاريخه، ج 1، ص 298.

[2] د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، جامعة دمشق 1986، ص 284.

أناجيل، وهي كتب مقدسة، إلا أن القرآن الكريم يعتبرهم أهل كتاب. إن جوهر الديانة المسيحية هو الإيمان بالله وبابنه يسوع المسيح. وإذا كان الإسلام يرى في المسيح كلمة الله، فإن المسيحيين يعتبرونه ابن الله.

لقد انتشرت النصرانية بين اليهود أولاً، ثم انتقلت إلى سائر الشعوب، فالقديس بولس اسمه في الأساس «شاول» هو من أوائل اليهود المتنصرين والمدافعين عن تعاليم السيد المسيح. وهو الذي تولى فيما بعد نقل المسيحية إلى بلاد العرب، وإلى بلاد الغرب، ولاسيما اليونان عبر الكرسي الأنطاكي[1].

والحقيقة أن المسيحية لم تنتشر في القرون الثلاثة الأولى انتشاراً مقبولاً بين العرب ولا حتى بين الشعوب الأخرى. فالمعروف أن الرومان حاربوها بداية، وكذلك اليونان لم يقبلوها وهم الذين لديهم معتقداتهم وفلسفتهم.

إن بولس اتصل بأناس عرب أثناء انتقاله من دمشق إلى أورشليم، وكان ينشر بينهم النصرانية كما تلقاها من يسوع، ومن معلّمه النصراني الدمشقي حنانيا. إن تنصر الرومان فيما بعد، سمح للمسيحية بالانتشار في الغرب أولاً، ثم بين الشعوب التي كانت تجاور الإمبراطورية الرومانية، والتي كانت تخضع لها ومن بينها العرب القاطنين شمالي شبه الجزيرة العربية.

ويبدو أن دخول المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية كان انطلاقاً من ثلاثة مداخل: سورية في الشمال، والعراق في الشمال الشرقي، والحبشة في الغرب[2].

وتجدر الإشارة إلى أن اليهودية والمسيحية اللتين انتشرتا في الجزيرة العربية قبل الإسلام قد دخل تعاليمها شيء كثير من التعديل لتتلاءما مع العقلية العربية والإطار العقائدي لهم. وكان من أهم نتائج انتشار هاتين الديانتين الموحدتين أن أخذت فكرة «الله» عندهم معنى جديداً يختلط فيه التوحيد بعبادة الآلهة الوثنية التي كانت تقدس في مجتمعهم، وجعلوا من هذه العبادة الوثنية وسيلة للتقرب إلى الله «...مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...»[3].

---

[1] د. سميح دغيم: أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص 65.

[2] المرجع نفسه، ص 66-67.

[3] سورة الزمر: الآية 3.

الديانة الوثنية

اختلفت مظاهر الوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام باختلاف الأمكنة والبقاع: فهي عند البدوي الضارب في فيافي جزيرة العرب تمثل أول أشكال المعتقدات السامية وأبسطها وأكثرها سذاجة، ولكنها عند عرب الجنوب (اليمن) بما فيها من المظاهر الفلكية والهياكل المزخرفة والشعائر الدينية وتقديم الذبائح والقرابين تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة أدّت إليها حالة الاستقرار والتحضر في المجتمع[1].

وديانة البدوي - شأنها في ذلك شأن غيرها من الديانات البدائية - مبنية على الإيمان بوجود أرواح في الأشياء المادية، مما يرى الإنسان حوله كالأشجار والحجارة، أو مما في مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والنجوم والشمس والقمر، فاعتقد البدوي أن لكل من هذه الأشياء روحاً تحركها، وبالتدريج أصبحت القوى الطبيعية العليا آلهة، أما القوى السفلى فأحيلت إلى مراتب الجن والشياطين. ثم تكاملت صورة الألوهية في مخيلة البدوي الجاهلي، إلا أن المحسوسات الطبيعية كالأشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعد وسائط يتقرب العابد منها إلى المعبود.

نزع العرب في منطقة الحجاز وما يجاورها من أنحاء نجد إلى تكريم الحجارة المقدسة أو المؤلهة - على حد قول بعض المؤرخين - تكريماً لا يختص بقبيلة دون أخرى، ولا ينفرد به بلد دون آخر، وهذا القرآن الكريم والشعر القديم شاهدان على انتشار الأصنام في أنحاء الجزيرة.

وكانت الحجارة التي تكرمها القبائل مأخوذة في أصلها من الحرم المكي. وفي ذلك يقول ابن هشام عن ابن إسحق: «ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن

---

[1] د. فيليب حتي: تاريخ العرب، دار الكشاف - بيروت 1959، ص 133-134.

كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم»[1]. كان لكل قبيلة عربية تقريباً ولأهل كل دار صنم عبدوه فإذا ما أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله. هذا ما ورد في سيرة ابن هشام[2] وأيده في هذا القول كثير من الرواة والإخباريين. أما كيف نشأت الوثنية العربية فهناك روايتان تتحدثان عن نشأتها: الأولى ترى أنها وافدة، والأخرى ترى أنها نشأت نشأة محلية.

أما عن الرواية الأولى فيقول الرازي المفسّر: «أن عمرو بن لحي لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولي أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة إلى البلقاء فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا: هذه أرباب نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقى. فالتمس إليهم أن يكرموه بواحد منها فأعطوه الصنم المعروف بهبل فسار به إلى مكة ووضعه في الكعبة ودعا الناس إلى تعظيمه، وذلك في أول ملك سابور ذي الأكتاف»[3].

وواضح من هذه الرواية أنها تسند أول عملية أدخلت فيها الأصنام للحرم إلى عمرو بن لحي، وأنه أتى بها من اليونان، فالوثنية اليونانية دخلت مكة وهذا من الآثار اليونانية. وهذه الرواية تبدو أنها أكيدة لأن الأصنام غير هبل كانت حجارة خالية من الفن، والذوق الجمالي. فلو أنهم أبدعوها لألبسوها مسحة فنية جمالية، وفي هذا ما يشير إلى أن العربي غير من دينه الحنيفي، لكنه ظل محباً لرمزياته المقدسة، ومن أهمها الكعبة، فحينما ابتدع أصناماً، أو حينما أتى بها من الخارج في بعض رحلاته رأيناه يودعها في الكعبة، فالرمزيات عند العربي، لا تخرج عن معنى الإلف، والعادة، والإرث، ولا تحمل إليه مضموناً فكرياً أو دينياً، لذلك كنا نراه لا يعنى بالدين في شيء، فالمعنى الديني عنده لا يخرج عن معنى العصبية القبلية، ولعل ما قاله لهم عمرو بن لحي: نستنصر فننصر، وقد صارت هذه عقيدة

---

[1] ابن هشام: سيرة رسول الله، ص 51.

[2] السيرة، ج 1، ص 83.

[3] فخر الدين الرازي، ج 1، ص 232.

بينهم توارثوها، ونراها ظهرت على لسان عبد المطلب وهو يفاوض أبرهة حينما قال له: «أما الإبل فهي لي وأما البيت فله رب يحميه»، وتعني هذه العبارة في نظرنا أن العربي يتميز بنظرته المادية هذا من ناحية، وأما من ناحية الموقف العربي القبلي أمام أبرهة فلم يظهر بالمستوى اللائق به فإنه كان قبلياً في تشتته وليس عربياً، فالوحدة العربية ظهرت مع الدعوة الإسلامية. ونظرته المادية هذه هي التي دفعتهم - وفقاً لما يقول المؤرخون الإسلاميون - إلى الاعتقاد بأن فكرة الحجر المقدس نشأت أساساً من حبه للكعبة وارتباطه الديني بها منذ أن بناها أبوه إبراهيم وربط بها ملته الحنيفية. غير أن العربي أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكري وراءها فكانت وثنية من غير مضمون فكري، وكانت أصنامه من غير مسحة فنية، وكانت الوثنية العربية ساذجة[1].

والرواية الثانية تقرر أنها ليست وافدة وإنما هي من صنعهم، أي أنها نشأت نشأة محلية، ولا مانع لدينا أن نأخذ بالروايتين معاً، على أساس أن عمرو بن لحي استقدم التماثيل حتى يوافق هوى قومه من حبهم للأحجار وتصبح هذه الرواية مخصوصة بالأحجار المصورة المنحوتة وليس بأصل عبادتها[2].

الأصنـــام

نجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي، وفي المؤلفات الإسلامية مثل: المخصص لابن سيده أسماء عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها وهي على الأكثر أصنام كان يتعبد لها أهل الحجاز ونجد والعربية الشمالية وذلك قبيل الإسلام. ومن هذه الموارد الإسلامية استقينا علمنا عن هذه الأصنام وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم، في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى»[3]، ويجب أن نضيف إليها الشمس[4]. وقد بلغ عدد الأصنام 360 صنماً على ما رواه ابن هشام.

---

[1] د. محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي - القاهرة 1994، ص 413.

[2] المرجع نفسه، ص 414.

[3] سورة النجم: الآيات 19 - 20.

[4] د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 227.

1- اللات:

ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء، بنت عليها «ثقيف» بيتاً صاروا يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، وانتقل تقديسها من ثقيف إلى قريش وجميع العرب، وبها كانت العرب تسمى (كزيد اللات، وتيم اللات). وكان لها معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز. واللات من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً. وقد ورد اسمها في نصوص «الحجر وصلخد وتدمر» وهي من مواضع النبط. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللات تمثل الشمس وهي أنثى، أي إلهة. وقد انتهت إلينا أسماء رجال أضيفت إلى اللات مثل «وهب اللات» كما ذكرنا، ومما يلفت النظر أننا لم نلاحظ ورود اسم «عبد اللات» بين أسماء الجاهلين. وقد أقسموا باللات كما أقسموا بالأصنام الأخرى[1].

2- العزَّى:

والعزَّى صنم أنثى، وقيل إنها كوكب الزهرة، وقيل إنه حجر أبيض، وقد ذكر الطبري روايات عديدة تفيد أن العزى شجيرات، وذكر ابن حبيب أن العزى شجرة بنخلة، عندها وثن تعبده غطفان سدنتها من (بني صرمة بن مرة). ويقول ابن الكلبي أيضاً: ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى، ثم مناة.

وكانت قريش تطوف بالكعبة، وتقول:

اللات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى

فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى

وكانوا يدّعون أن اللات والعزى ومناة هم بنات الله وهن يشفعن إليه. واستمرت عبادة العزى عند العرب حتى كان عام الفتح فدعا النبي (ﷺ) خالد بن الوليد وطلب إليه هدمها، فذهب خالد وقطع الشجيرات الثلاث وقضى على ما كان يعرف بالعزى، والذي كان مؤلفاً على ما يبدو من شجيرات ثلاث وبيت ووثن[2].

---

[1] د. جواد علي: المرجع السابق، ص 232 - 233.

[2] ابن الكلبي: الأصنام، ص 27.

3- منـاة:

وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۞»[1]. ومناة تمثل إلهة الحظ التي عُبدت في مكة. وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث في نظر الجاهليين. وموضع مناة بالمشلل على سبعة أميال من المدينة. وقيل إنه بموضع «ودان» أو في موضع قريب منه. ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم كان معظماً وخاصة عند الأوس والخزرج، أي أهل يثرب، ومن كان يأخذ مأخذهم من عرب المدينة. فكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده ولا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك. وكانت القبائل العربية الأخرى تعظمه كذلك وفي جملتها قريش وهذيل وخزاعة وأزد شنوءة[2].

أما سدنته فهم «الغطاريف» من الأزد. وذكر أن تلبيته كانت: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، لولا أن بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك، وما زال حج عثج (من قبائل العرب) يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك»[3]. وكانت مناة صخرة لهذيل وخزاعة.

4- هُبَـلْ:

أعظم أصنام قريش، كان موضعه في جوف الكعبة، وقيل على ظهرها، وقيل على البئر المحاذية لها، إذ كان يجمع عنده ما يُهدى للكعبة. وهبل من العقيق الأحمر المصنوع على هيئة الإنسان، ويحكى أنه كان مكسور اليد فجعلت قريش له يداً من ذهب.

ولعل أبرز ما عُرف به هبل عند العرب أنها كانت تستقسم عنده بالأزلام وتضرب القداح في أكثر من مناسبة كختان الأولاد وإقامة حفلات الأعراس والمآتم.

وذهب بعض المستشرقين إلى أن هبل هو رمز إله القمر وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين. وكان من شدة تعظيم قريش له أنهم وضعوه في جوف الكعبة، وأنه كان الصنم الأكبر في البيت. وقد ورد اسم هبل في الكتابات النبطية التي عثر

---

[1] سورة النجم: الآيات 19 - 20.

[2] د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 247.

[3] المرجع نفسه، ص 251.

عليها في الحجر، ورد مع اسم صنمين: دوشرا (ذي الشرى)، ومنوتو (مناة). وقد تسمى به أشخاص، وبطون من قبيلة «كل» مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبد له، وأنه كان من معبودات العرب الشمالية.

5- ود:

هو صنم بني كلب وكان مكانه في دومة الجندل. وكان أول من عبده منهم، عُذرة، وابنه عامر بن عوف هو أول سدنة ود. ومن نسله تتابعت سدنة هذا الصنم. وكان البعض يهدونه اللبن. ويصفه ابن الكلبي بأنه كان تمثال «رجل أعظم ما يكون الرجال، وقد زُبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتد بأخرى. عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء وفضة (أي جعبة) فيها نبل»[1]. وود من الآلهة الجنوبية، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث: الأب والأم والابن.

6- سواع :

أما سواع فكان موضعه «برهاط» من أرض ينبع، وذكر أنه كان صنماً على صورة امرأة. وهو صنم هذيل.

وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته - كعادته - إلى عمرو بن لحي - فذكر أن مضر بن نزار أجابت عمرو بن لحي، فدفع إلى رجل من هذيل يقال له «الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل» سواعاً بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر. وذكر ابن حبيب أنه كان بنعمان وأن عبدته بنو كنانة وهذيل ومزينة، وكان سدنته بنو هاصلة من هذيل. وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك.

7- يغوث:

وكانت تعبده مذحج وأهل جرش، وكان موضعه بأكمة في اليمن يقال لها مذحج، ولا يعرف عنه الشيء الكثير. ويبدو أنه كان من الآلهة المحلية التي لم يشع ذكرها أو تنتشر عبادتها[2]. وفي اسمه واسم يعوق ما يشير إلى أرواح حافظة.

---

[1] الأصنام، ص 56.

[2] الأصنام، ص 57.

8- يعوق:

ويعوق أيضاً في جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل. وهو صنم خيوان، وخيوان قرية تقع على بعد ليلتين من صنعاء وكانت تعبده بنو همدان.

9- نسر:

وكان مكانه في موضع من أرض سبأ يقال له (بلخع) وكانت تعبده حمير ومن والاها، ولم يزالوا يعبدونه حتى هودهم ذو نواس الحميري، لذلك لم يشع ذكره كثيراً ولم يتسمَّ به أحد[1].

10- عميانس:

هو صنم خولان، وموضعه في أرض خولان، وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث.

11- أساف ونائلة:

وهما في الأصل، على ما تزعم الروايات العربية، رجل وامرأة من جرهم، والرجل اسمه أساف بن بغي، والمرأة نائلة بنت ديك. فسقا في داخل الكعبة، فمسخهما الله حجرين، فأُخرجا ووضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الناس الأصنام عبدا معها[2].

وهناك أصنام أخرى كثيرة لم نتعرض لها بذكر لقلة أهميتها وعدم شيوع عبادتها. ويذكر ابن إسحق أنه كان عندهم إلى جانب هذه الأصنام العامة أصنام خاصة فقد اتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه[3].

والعربي لا يميل إلى دين، وإن كان أحياناً شديد التعظيم لآلهته المنصوبة حول الكعبة، وفي غيرها من البيوت والأماكن المقدسة، فقد كان ينكر هذه الآلهة لأسباب تافهة، ويرتد عن عبادتها، ولا بأس من أكلها إذا كانت مصنوعة من مادة غذائية كالتمر مثلاً! كما فعل بنو حنيفة بإلههم وكان مصنوعاً من حيس (طعام

---

[1] الأصنام، ص 57.

[2] الأصنام، ص 29.

[3] د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم، ص 265.

من التمر والسمن واللبن) فقال تميمي: أكلت حنيفة ربها من جوع قديم بها ومن إعواز. وقال آخر:

أكلــت حنيفــة ربهــا زمـن الـتقحم والمجاعـة

لم يحــذروا مــن ربهــم سوء العواقب والتباعـة

ويجب على الباحث - في مثل هذا الموضوع - أن يفرق بين نوعين من الأحجار المؤلهة: الأول بدوي والثاني حضري، كما كان عبادهما في الجاهلية بدواً وحضراً. ثم بين آلهة القبائل وآلهة المنازل. وظلت الحجارة العديدة مدة طويلة تحتل فناء الكعبة أي الساحة المحيطة بها، على أنها لم تبلغ ذلك العدد الكبير الذي ترقى به الأسطورة إلى 360 يحطمها النبي يوم الفتح[1].

التحمس القرشي

الحمس جمع الأحمس وهم: قريش ومن ولدت قريش، وكنانة، وبجيلة، وقيس، سمّوا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم، أي تشددوا. بمعنى أنهم كانوا يقفون بمزدلفة، ولا يقفون بعرفة، ويقولون: نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون، وكانوا قد ذهبوا في ذلك مذهب التزهد والتأله. يقول ابن إسحق: «لا أدري قبل الفيل أو بعده ابتدعت قريش آراء التحمس، ويغلب على ظني أنهم ابتدعوا هذا المذهب قبل عام الفيل منذ أن استقر أمرهم على خدمة البيت بعد قصي ووزعوا الزعامة بينهم وأحسوا بعصبيتهم القبلية وتميزهم، فبيتهم بيت العرب، ورب قبيلتهم: رب العرب، فنشأت فكرة الجمع بين فكرة الألوهية، وفكرة الملكية للبيت ليصبغ عليهم الصبغة المقدسة»[2].

وهكذا أصبح للعبادة في الكعبة مراسم وثنية معينة: يحج الناس إليها في التاسع من ذي الحجة، فيحرمون ويطوفون، يلبون، يرمون الحجارة، ويتمسحون بالأصنام والأوثان التي فيها، ويهدون. وكان أهل الحرم يؤمون الناس في المناسك

---

[1] سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار - بيروت 1979، ص 41.

[2] محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ص 443 - 444.

وسدانة البيت عندهم وراثية في آل «عبد الدار»، وهم يشبهون الأسر الدينية التي كان بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان[1].

وهكذا عززت قريش وضعها الاقتصادي برحلاتها التجارية، وعززت أيضاً وضعها القبلي بتشريعاتها الوثنية وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش متمرداً على قدسية البيت، ومن يتمرد على البيت فهو يتمرد على قريش، وبهذا أصلت الوثنية النظام القبلي وأصبح هدم النظام القبلي يستدعي عندهم النظام الوثني وهذه تعد عقبات في سبيل الإصلاح. ولما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتاً يضاهون بها الكعبة. قال ابن هشام: وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت لها وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي إليها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها طوافها حول البيت العتيق، ومنها:

- بيت رضا: فأصبح هناك بيت لبني ربيعة يدعى (بيت رضا) هدمه المستوغر في الإسلام.

- وذو الكعبات بسنداد: لبكر وتغلب ابني وائل، وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة في الظهر، وهي التي ذكرها الأسود بن يعفر، يقول: وقد سمعت أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة إنما كان منزلاً شريفاً فذكرته.

- والقليس: وقد كان أبرهة الأشرم قد بنى بيتاً بصنعاء «كنيسة» سماها: (القليس) - بالرخام وجيد الخشب المذهب - وكتب إلى ملك الحبشة يقول: إني قد بنيت لك كنيسة، لم يبن مثلها أحد قط، ولست تاركاً العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذي يحجون إليه. فبلغ ذلك بعض نسأة الشهور فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجا حتى يتغوطا فيها. ففعلا. فلما بلغه غضب، وقال: من اجترأ على هذا؟ فقيل: بعض أهل الكعبة، فغضب وخرج إلى الحبشة فكان من أمره ما كان.

- كعبة نجران: وكان لبني الحارث كعبة بنجران يعظمونها وهي التي ذكرها الأعشى في قوله: وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها. وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة ولكن كانت غرفة لأولئك القوم الذين ذكرهم.

---

[1] المرجع السابق، ص 444.

ومن هذه البيوت: رئام وكان لحمير بصنعاء، وبيت الحوراء... إلخ. ولعل نشأة تلك البيوت المقدسة أو الطواغيت يرجع إلى نشأة مذهب قريش الأحمسي الذي صبغ البيت الحرام بصبغة قبلية قرشية اضطرت القبائل المجاورة أن تحاكيها بمثل بيتها.

والدلائل تشير إلى أن الوثني في الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك في دينه بعقيدة نابعة من شعور ديني عميق أو عاطفة روحية شديدة قائمة على عقل سديد أو تفكير سليم، لكن هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليداً لغيرهم أو تمسكاً بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين.

عبادة الكواكب

الصابئة:

كان بين عرب الجاهلية جماعة من الصابئة الذين عبدوا الكواكب وآمنوا بإله خالق، واعترفوا بالعجز عن الوصول إلى جلاله إلا بواسطة روحانية لا جسمانية. والصابئون هم بالحقيقة - على رأي البيروني - المتخلفون من أسرى بابل الذين نقلهم بختنصر من بيت المقدس إليها. ولقد اعتادوا أرض بابل فآثروا المقام بها، ولما لم يكونوا من دينهم بمكان معتمد، سمعوا أقاويل المجوس (عبدة النار)، وصبوا إلى بعضها، فامتزجت مذاهبهم مع المجوسية واليهودية، وانتشروا في بلاد الرافدين، على أن أكثريتهم سكنت سواد العراق[1].

ومما يجدر بالذكر أن مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين. ويفهم بالروحانيين ملائكة السماء. وهم يعتقدون أن للعالم فاطراً ويرون من الواجب عليهم معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله. فيتقربون إليه بالمتوسطات لديه، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة[2].

فالجوهر، يعني أن الروحانيات من حيث جوهرها قد جبلت على الطهارة وفطرت على التقديس، يتقرب إليها ويتكل عليها. فهي أربابهم وآلهتهم ووسائلهم وشفعاؤهم عند الله. وهو رب الأرباب وإله الآلهة.

---

[1] سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا، ص 112.

[2] الملل والنحل، ج 2، ص 95-96.

وبالفعل قالوا إن الروحانيات هم المتوسطون في تصريف الأمور، يستمدون القوة من الله ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية. ومن هذه الروحانيات مدبرات الكواكب السبع السيارة. فالكواكب عندهم هياكل الروحانيات، لكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، وتكون نسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل «أي الكوكب» الذي اختص به، كنسبة الروح إلى الجسد[1].

وأحوال الروحانيات في جوار رب الأرباب لا يعصون الله ما أمرهم. وما دام لا بد للإنسان من متوسط، ولا بد للمتوسط من أن يرى فيتوجه إليه، لذلك فزعوا إلى الهياكل (يعني السيارات السبع) يتعرفون على منازلها ومطالعها ومغاربها وكل ما يتعلق بها من صفات وحركات، وسموها أرباباً آلهة... فكانوا يتقربون إليها تقرباً من الروحانيات، ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى الله لاعتقادهم بأن الكواكب هياكل أو أبدان الروحانيات. ولما كانت الهياكل تأفل فلا يرونها أحياناً، لذلك اتخذوا أشخاصاً أصناماً على مثال الهياكل (الكواكب) السبعة... إذ لا بد لهم من صور وأشخاص موجودة قائمة نصب أعينهم ليقدموا لها العبادات[2].

وهذا ما دعا البعض إلى أن يفرق بين من عبد النجوم مباشرة، وبين الذين عبدوا الأصنام التي تمثلها. والحقيقة أنه لا فرق بينهما.. والظاهر أنهم كانوا يعظمون مع الكواكب السبعة (الشمس والقمر والزهرة والمشتري والمريخ وعطارد وزحل) البروج الاثني عشر. فقد كانوا يعيّدون لحلول الكواكب السيارة بيوتها، وكذلك كلما استهل الهلال، وحلت الشمس برجاً من الأبراج المذكورة.

معرفة العرب بالنجوم:

والظاهر أيضاً أن الصابئيين قد نقلوا عن أساتذتهم الكلدانيين علوم الفلك، ذلك أن مذهبهم كان عين مذهب الكلدانيين القدماء، أولئك الذين كانت لهم عناية بأرصاد الكواكب، وتحقيق بعلم أسرار الفلك، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها.

---

[1] المرجع السابق، ص 97.

[2] المرجع نفسه، 148.

ولما كان عرب الجاهلية على اتصال بسكان المناطق المتاخمة، فليس بعيداً أن يكون شيء من علوم الفلك قد تسرب إليهم عن طريق الصابئة، وهم من عرفهم العرب منذ القدم، وكانت لهم فيما بعد المنزلة نفسها التي كانت لأولي الكتاب، كما أنه ليس عجيباً أن يندس شيء من عبادة النجوم بين تلك العلوم المتسربة[1].

والعرب كان لهم معرفة بالفلك، وكانت هذه المعرفة متفاوتة بينهم. وقد قالوا إن أعلم العرب بالنجوم بنو مارية بن كلب وبنو مرة بن همام بن شيبان. كما كانت عبادة النجوم عند قوم أشد منها عند آخرين.

الزهـرة:

في حديثنا عن العزّى قلنا إنها الزهرة، ومما ذكره «نيلنو» معتمداً على (ولهوزن) أننا نستفيد من المؤلفين السريانيين واليونانيين من القرن الخامس والسادس للمسيح، أن بعض العرب المجاورين للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها، وكانوا يسمونها إذ ذاك العزى. وكان (سميث) أوسع منهما تعميماً لعبادتها، إذ يقول: إن الكوكب *Venus* لم تكن إلهة قبليّة، وإنما كانت - كما نعرف من مصادر عدة - معبودة عرب الشمال بأجمعهم.

الشمـس والقمـر:

الشمس مع الزهرة والقمر، تكوِّن الثالوث الإلهي الرئيسي- كما يعتقد *Langdon* (وهو ممن يقولون بأن أصل الساميين من جنوب جزيرة العرب)- وهي كما نرى مؤلهات فلكية، وهو يعتمد في اعتقاده هذا، على نقوش يمنية وحضرمية ترجع إلى عهد الحضارات الجنوبية المندثرة. ولم يقتصر تقديس ذلك الثالوث السماوي على عرب الجنوب فقد كان يتحكم عند البابليين في منطقة البروج، وهي في نظرهم أهم قسم من أقسام الكون. وقد كانوا منذ القدم يعتبرون الآلهة - ولاسيما الشمس - حماة العدل والقانون، كما ظنوا أنها تنتقم من الظالم والمجرم[2]. وكثيراً ما تنشر كتب التاريخ القديم صورة لتمثال حمورابي وهو يتسلم

---

[1] سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا، ص 82.

[2] المرجع نفسه، ص 92.

دستوره قبل نحو 20 قرناً قبل الميلاد، من الإله (الشمس) ولا غرابة في عبادة الساميين للشمس. ونحن نعلم أن الساميين وغيرهم من الشعوب القديمة، وكذلك الشعوب البدائية في جميع أنحاء العالم قد عبدوا القوى الطبيعية التي لها تأثير في حياتهم. وكانت المؤلهات عند الساميين تتألف من جسد وروح. فظاهر الشمس جسدها، والروح أو (البعل) في داخلها فهي شمس وإله معاً، فإذا عبدوا القوى الطبيعية وشخصوها تدريجياً فلماذا لا يعبدون إله الشمس وهو سيد القوى ومانح غلال الأرض من ثمار وحبوب ومالئ مخازنهم بخيرات الحصاد. هذا الإله لم يكن في العراق وحسب، وإنما عمت عبادته سورية وفلسطين[1].

أما القمر، هذا النير الذي يجب أن يكون قد لفت أنظار الشعوب الفطرية بكاملها منذ البدء وادخل في عقليتها أن له تأثيراً شديداً في الكائنات وفي تصرفات الإنسان وغيره من المخلوقات من حيوان ونبات وجماد.

«وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ...»[2]. آية نستدل منها على عبادة القمر أيضاً.

الدبران والثريا والشعريان:

الظاهر أن عبادة هذه الكواكب من قبل عرب الجاهلية هو بدافع الرهبة لا الرغبة فيها.

فالدبران كوكب مشؤوم عندهم لا يمطرون - على زعمهم - بنوئه إلا وسنتهم جدباء، ولهذا ضربوه مثلاً في النكد والشؤم فقالوا أنكد من تالي النجم[3].

ولا غرابة في عبادتهم للثريا فهي مانحة الغيث، وللغيث شأنه في بلاد العرب.

أما الشعريان فقوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى»[4]. آية تشير إشارة لطيفة إلى عبادة الكواكب، وإلى إمكانية اعتبار هذا النجم معبوداً جاهلياً.

---

[1] سليم الحوت: المرجع السابق، ص 93.

[2] سورة فصلت: الآية 37.

[3] الميداني: مجمع الأمثال، م 2، ص 312.

[4] سورة النجم: الآية 49.

تقديس الإنسان والحيوان والنبات

لقد عظّمت العرب الرؤساء كشأن غيرهم ممن عظموا الملوك تعظيم العبادة، مع ما تستوجبه الحياة ومقتضياتها. وهم، ما داموا غير مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بإله، ولا يجمعهم دين عام كما تجمعهم أواصر القبيلة التي كانت مثال العروة الوثقى بينهم، فلماذا لا يعظمون ويقدسون سيدها أو يرفعونه إلى مكان العبادة؟

إن ما حدثونا به عن عمرو بن لحي وعن ابتداعاته الدينية في الجاهلية، لأقرب إلى ما نحن بصدده من تعظيم العرب رؤسائهم وتقديس زعمائهم. فذهب بعضهم إلى أنه صار ربّاً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم، وربما نحر لهم في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة[1]. ولا عجب من بدويّ ذي دين رقيق أو غير ذي دين أن يؤله مثل عمرو بن لحي... وإذا أضفنا إلى هذه الأسباب كهانة (الخزاعي) وأنه كان لديه رئي من الجن، كان ذلك كافياً لبدوي الجاهلية أن يضع مثل هذا الكاهن - ولاسيما إذا كان زعيمه - موضع التقديس، أو يرفعه إلى مكانة التأليه والعبادة.

وهناك روايات تهدينا إلى أن العربي عبد الحيوان الحي نفسه، ولم ينحت الأصنام على صورة الحيوان لأنه كان جاهلاً بصناعة الرسم والنحت. نعم لقد وجدت الأصنام على صورة الحيوان في شبه الجزيرة، ولكن معظمها بل كلها كان مجلوباً من البلاد المجاورة. والأصنام التي وجدت على صورة الحيوان ثلاثة:

1- النسر: وكان على صورة النسر فكان بموضع من أرض سبأ يقال له (بلخع)، تعبده حمير ومن والاها، فلم يزالوا يعبدونه حتى هودهم ذو نواس.

2- يغوث: وكان على هيئة الأسد، وكان بأكمة في اليمن يقال لها (مذحج) ومن والاها.

3- يعوق: وكان على صورة الفرس، فكان بقرية يقال لها (خيوان) تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن.

كان العرب يقدسون الحيوان كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم، لكن

---

[1] السيرة الحلبية، ج 1، ص 12.

غرضهم في تقديس الحيوان وعبادته يختلف عما يقصد أهل الطوطم، إذ كان أهل الطوطم يرمون بعبادة الحيوان على إجلال الآباء وإكرامهم، وهم - كما ذكرنا سابقاً - ينتمون إليه بصلة القربى فكانوا مدينين للطوطم بحياتهم ومماتهم، لكن العرب لم يعتقدوا أن حياتهم هبة من هبات إله حيواني، ولا رأوا صلة رحم بينهم وبين الحيوان الطوطمي كما هي عقيدة البدائيين[1]. بل كان العربي يقدس الحيوان ويعبده لتحصل له البركة، وشكراً لاستفادته منه على مجرى عادة الرعاة جميعاً[2].

ولم يكن تقديس الأشجار بين عرب الجاهلية بأقل من تقديس الحيوانات، ونخص بالذكر شجرة النخيل التي كانت تؤلف قواماً من مقومات حياتهم، والتي لا بد أن تكون قد عبدت وقدست لهذه الميزة.

عبادة الجن والملائكة والظواهر الطبيعية

يقول ابن الكلبي: «وكانت بنو مليح من خزاعة - وهم رهط طلحة الطلحات - يعبدون الجن».

وفيهم نزلت الآية: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»[3].

وقد نزلت آيات كثيرة في الجن وعبادتها، منها: «... بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ»[4].

إن الجن والغول والسعلاة كانت من الحيوان في صميم الفكرة العربية. ولذلك نرى الباحثين عن معنى الجن عند العرب أدخلوه في نوع من الحيوان متأثرين بفكرة البادية وقالوا: «إن الغول حيوان شاذ».

وإذا نظرنا إلى أصل نشوء الجن عند العرب نشعر أن مساكن الجن تشبه مساكن السباع التي كان يخاف العرب منها، فكل شيء مخيف، أو صوت غريب كان متعلقاً بالجن في بادية العرب. فهذه الفكرة إما أن تكون قد بدأت في بادية

---

[1] محمد عبد المعين خان: الميثولوجيا عند العرب، دار الحداثة - بيروت 1980، ص 83-84.
[2] المرجع نفسه، ص 84.
[3] سورة الأعراف: الآية 194.
[4] سورة سبأ: الآية 41.

العرب نفسها، وإما أن تكون قد جلبت من الخارج، فإذا كانت مجلوبة فليس لنا أن نبحث فيها، بل نتركها لفرصة أخرى. أما إذا كان منشؤها في البادية نفسها فأغلب الظن أن تكون بذور تلك الفكرة هي أن العربي كان يخاف بعض الخرافات والفلوات، ويستوحش من سماع الصدى بين الجبال، كما قيل إن الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجبون من رد ذلك[1].

وأما عبادة الملائكة فشاهدها قول قريش للرسول: «نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله». وقال تعالى: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ»[2].

الظواهر الطبيعية

وقد تُلقي الظواهر الطبيعية الرهبة في النفوس أيضاً فتعبد. ومما يروى أن قسماً من العرب قد عبد البرق. وهم - كما في السيرة - بنو عدي، إنما سموا ببارق لأنهم تعبدوا البرق[3].

ويمتنع المطر فتقدم أنواع الشعائر لاستنزاله. ويقول لامنس: «وكذلك القول عن صلاة الاستسقاء وعن الميزة أو الكرامة التي اختص بها بعضهم من استنزال المطر زمن الجدب، وهي ميزة يبررها عادة كون صاحبها يحفظ بيت القبيلة وقبتها، وللبيت والقبة مركزها الأسمى في هذه الأدعية الحافلة»[4].

إن عبادة النار لم تكن مجهولة لدى بعض أعراب الجزيرة فقد عبدها أناس فيها، وهم على رأي الألوسي - أشتات من العرب، ربما سرى إليهم ذلك من الفرس والمجوس. وفي كتاب الحيوان للجاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار، وكذلك في نهاية الأرب للنويري حديث عام في النار، وأسمائها وعبادها وبيوتها مما لا حاجة لنا به، إلا ما جاء على ذكر نيران العرب العديدة. ولا نشير هنا إلا إلى ثلاث منها وهي: نار الاستسقاء، نار التحالف، نار الحرتين. كانوا يشعلون مواد نباتية سريعة

---

[1] الميثولوجيا: محمد عبد المعين خان، ص 73-74.

[2] سورة سبأ: الآية 40.

[3] السيرة لابن هشام: ص 67.

[4] سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا، ص 115.

الاحتراق، يعلقونها بأذناب البقر بعد أن يصعدوا بها على جبل وعر. وكان هذا العمل، في زعمهم، سبباً من أسباب نزول الغيث. هذه هي نار الاستسقاء التي كانت تصطحب بضجيج من الأدعية والتضرع.

وأما الثانية، وهي نار التحالف، فكانوا لا يعقدون حلفهم إلا عليها. يطرحون فيها الكبريت والملح. ومما جاء في «أيمان العرب في الجاهلية» قال أبو عبيدة: «كانوا في الجاهلية إذا تحالفوا وتعاهدوا أوقدوا ناراً ودنوا منها حتى تكاد تحرقهم. وعدوا منافع النار ودعوا على ناقض تلك اليمين، والناكث لذلك العهد، بحرمان تلك المنافع، ويتصافحون عندها، ويقولون: الدم، الدم، والهدم، الهدم، والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم، والهدم اسم البناء المهدوم، أي فما هدم لكم من بناء أو شأن فقد هدم لنا، وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة أنفسنا»[1].

غير أن نار الحرتين التي أطفأها خالد بن سنان كانت على ما يظهر أحفل نيران العرب كلها بالخرافات. وهي في بلاد عبس. زعموا أنه كان يخرج منها عنق فسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، ولا تمر بشيء إلا أحرقته... إلى أن كان من أمر خالد بن سنان ما كان، حيث أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً خرج بهم نحوها، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير، وأحاط بهم فقالوا: هلكت والله أشياخ بني عبس آخر الدهر. فقال خالد كلا! وجعل يضرب ذلك العنق ويقول: «بداً بداً، كل هدي الله يؤدى! أنا عبد الله خالد بن سنان» فما زال يضربه حتى رجع وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه فدخل عليه خالد، فقال ابن عم له: لا أرى خالداً يخرج إليكم أبداً... فخرج خالد ينطف عرقاً!! وفي هذه النار يقول الشاعر:

كنار الحرتين لها زفير تصم مسامع الرجل السميع[2]

ولا يفوتنا أن نذكر أن عابد الأصنام أنكروا الرسل. فكيف يكون هذا النبي أو ذاك مرسلاً من عند الله وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب وينام؟ إن البدوي

---

[1] سليم الحوت: المرجع السابق، ص 117.

[2] المرجع نفسه، ص 119.

مما يؤثر عنه من صعوبة الانقياد وضعف الشعور الديني - بالنسبة على كرامته الفردية والقبلية في الحرية الشخصية ليصعب عليها الانصياع إلى رجل مثله يطلب منه الطاعة التامة، وليجدر به أن يجحد إرسال مثل هذا الرجل. وقد جاء في القرآن الكريم ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾[1].

وكذلك أنكروا البعث فإن عقلية البدوي البسيطة لم يكن بوسعها أن تؤمن بحياة أخرى، وخيالهم لم يتسع إلى تصور نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد. وقد ورد شيء في أشعارهم يشك بالبعث، يقول شاعر جاهلي:

حياةٌ ثمَّ مَوْتٌ ثمَّ بَعْثٌ ... حَديثُ خرافةٍ يَا أمَّ عمرو[2]

[1] سورة الإسراء: الآية 94.

[2] سليم الحوت: المرجع السابق، ص 120.

obeikandl.com